(الجنة الآن).. عندما تدفع المقاومة الإسلامية الضريبة!

يعرض الكاتب والمخرج الفلسطيني **هاني أبو أسعد** في فيلمه (**الجنة الآن**) اليومين الأخيرين من حياة شابين فلسطينيين في نابلس قررا القيام بعملية استشهادية، وحسب تصريحات المخرج فإنه لم يوجه فيلمه هذا إلى الغرب، كما لم يذكر أنه موجه إلى العرب أو المسلمين أيضاً، بل صنعه لنفسه أولاً كي يحافظ على وجود شعبه في التاريخ من خلال هذه القصة[1]. ومع ذلك، فقد عُرض الفيلم في عدة مهرجانات عالمية قبل أن يُوزع في الدول العربية، وكان الفيلم العربي الثالث الذي يدخل مسابقة الأوسكار عام **٢٠٠٦** بعد فيلم الجزائري **رشيد بو شارب (غبار الحياة)** (**١٩٨٤**)[2]، وحاز على جائزة (جولدن جلوب) (الكرة الذهبية) لأفضل فيلم أجنبي في الولايات المتحدة، إضافة إلى العديد من الجوائز العالمية، مما يدعونا إلى تصنيف الفيلم ضمن قائمة الأفلام العالمية.

وُلد المخرج هاني أبو أسعد في فلسطين عام **١٩٦١**، وانتقل عام **١٩٨٠** وهو في سن التاسعة عشرة إلى أمستردام في هولندا لدراسة هندسة الطيران، ولكنه تحول فيما بعد إلى صناعة الأفلام، وصنع أفلاماً عديدة قبل أن ينال فيلمه (الجنة الآن) شهرة عالمية واسعة، مما دفعه إلى الانتقال إلى هوليود، وحسب تصريح له فقد عاش في أمستردام لمدة أطول في حياته مما قضاه في فلسطين.

---

(١) برنامج (حوار مفتوح) على قناة الجزيرة، ٩/ ٣/ ٢٠٠٦.

(٢) يذكر أن (بو شارب) عاد إلى مسابقة الأوسكار مرة أخرى مع فيلم أيام المجد (٢٠٠٥)، ولكنه لم يحصل على الجائزة.

obeikandi.com

قصة الفيلم.. بين التشويق والإيديولوجيا

يحكي الفيلم قصة شابين فلسطينيين يعملان في ورشة لتصليح السيارات في نابلس (سعيد وخالد)، ويعانيان من تبعات الاحتلال والحصار كأي فرد آخر من (عرب ٤٨). يخسر خالد عمله لإساءته إلى أحد الزبائن، فيخرج الصديقان إلى أحد المقاهي المتواضعة. وينقل لنا حوارهما صورة قاتمة عن معاناة الشباب الفلسطيني. وفي طريق العودة يلتقي سعيد بمدرس ملتحٍ (جمال) يتعاون سراً مع إحدى خلايا المقاومة، ليزف إليه خبر اختيار الصديقين -بناء على طلبهما- لتنفيذ عملية استشهادية في اليوم التالي.

من خلال هذه المقدمة الشائقة، يدفعنا المخرج الذي كتب نص الفيلم بنفسه إلى متابعة تفاصيل الساعات الأخيرة لشابين قررا الموت بملء إرادتهما، ويحاول الغوص في أعماق كل منهما مبرزاً البعد الإنساني والعاطفي للفدائيين، ومتعمداً كسر الحاجز النفسي لدى الغرب بهدف تفهم حاجات هؤلاء الشباب ودوافعهم، وتتجلى هذه المحاولة في تجميل صورة الاستشهادي بصرياً وسردياً، فهو شاب حليق الذقن يرتدي بذلة أنيقة، ويقبّل صديقته قبل المضي إلى الموت! وهي محاولة قد تشجع المشاهد الغربي على طرح الأسئلة حول الجوانب الأخرى لحياة الفلسطينيين بعيداً عن التخلف والعنف.

مع أن المخرج الذكي حرص على تجنب المرجعيات الإيديولوجية للاستشهاديين والمقاومين إلا أن الإيديولوجيا كانت تسفر عن وجهها بوضوح، فقد درجت العادة على تصنيف الفدائيين إلى علمانيين ومتدينين، حيث يرى العلماني (اليساري) في **الاستشهاد** الاختياري وسيلة أخيرة لإعلان حقه في الحرية وسلاحاً فعالاً لكسر معنويات العدو وإيقاع أكبر

قدر من الخسائر في صفوفه، ويزيد المتدين على ذلك باعتقاده أن الاستشهاد هو أقصر طريق إلى الجنة، ولكن المخرج قرر إبراز جوانب أخرى من شخصية الفدائي لم تكن واردة في أذهان الكثيرين، ففي الوقت الذي يبدو فيه خالد؛ الممثل **علي سليمان**، أقرب إلى التدين السطحي ونزقاً وغير متزن، نجد صديقه المتعقل سعيد؛ الممثل **قيس ناشف**، خارج التصنيف لعدم إيمانه أصلاً بالقضية. وعندما يتوجه الاثنان لتفجير نفسيهما في تل أبيب في وقت واحد، يبدي خالد شوقه الكبير إلى الجنة، في حين يبدو سعيد متردداً وغير مقتنع بصحة ما يقومان به. أما صورة قائدي الخلية وهما أبو أكرم؛ الممثل **أشرف برهوم**، وجمال، فلم ينجح المخرج في إبقائها على الحياد، فلحية جمال وإمامته بقية أفراد الخلية قبل العملية في الصلاة، وتذكيره الشابين بأنهما ذاهبان إلى الجنة، هي دلائل تشير إلى خلفيته الدينية، في حين يثير الشكوك بسلوكه البراغماتي الذي لا يقتصر على تدخينه الشره والمتواصل فحسب، بل نجد لديه الملامح المعتادة للصورة التي تقدمها بعض وسائل الإعلام لتلك الفئة من **صنّاع الموت!**

تتشابك خيوط القصة مع إخفاق العملية في المحاولة الأولى، فيفترق الشابان عن طريق الخطأ، ثم يبدأ خالد البحث عن سعيد، في حين يتابع الأخير طريقه وحيداً لتنفيذ العملية، ولكنه يحجم عن تفجير إحدى الحافلات المكتظة بالإسرائيليين عندما يلمح فيها طفلة صغيرة، ومع حلول المساء يلتقي عن طريق المصادفة بصديقته سهى التي تخفي إعجابها به -الممثلة المغربية **لبنى عزبل**- فيكشف لها عن حقيقة والده الذي كان عميلاً للصهاينة وأنه يعاني قسوة الحياة بعد تصفية والده من قبل المحتل وهو في سن العاشرة، ثم يقبّلها قبلة الوداع ويمضي هارباً إلى قبر والده ويحاول الانتحار فوقه بتفجير نفسه قبل أن يمنعه خالد في اللحظة الأخيرة، مما يثير الكثير من التساؤل حول هذه الانهزامية المفاجئة للمقاوم الذي بات انتحارياً بغير قضية، لينحصر البعد النضالي للشهادة في

مفهوم أضيق؛ نحاول تلمسه في حوار الاستشهادي الآخر (خالد) مع سهى التي ترفض الفكرة من أساسها وبشدة.

في المشهد التالي، يدور حوار طويل بين سعيد والمشرف على العملية (أبو أكرم)، ويمنح المخرج لسعيد وقتاً كافياً لشرح وجهة نظره، فيبدأ بالشكوى من السجن الكبير الذي يسمى الضفة الغربية، ومن الجرائم التي يرتكبها الاحتلال في حق الشعب الفلسطيني، أما الجريمة الكبرى في رأيه فهي استغلال ضعف الناس وإسقاطهم في فخ العمالة ثم تصفيتهم، إذ كان والده طيباً، ولكنه ضعُف في يوم ما، ويجب أن يتحمل الاحتلال نفسه تبعات هذا الضعف. وقبل أن يسمح المخرج بتحول بوصلة الاستشهادي من قضية المقاومة إلى تبرير الخيانة، يتذمر سعيد من عجزه أمام صمت العالم عن جرائم الاحتلال، ومن المحتل الذي يمثل دور الضحية والجلاد في آن واحد، ويعلن عزمه على تنفيذ العملية لاسترداد كرامته وإيصال رسالته، حتى إن لم يبق أمامه سوى دور المقتول والقاتل برد الفعل في آن واحد، ويُقفل الحوار الأخير للاستشهادي دون أن يأتي على ذكر الجنة التي وضعها المخرج عنواناً لفيلمه.

في المشهد الأخير يخرج الصديقان مرة أخرى إلى تل أبيب، ونكتشف أن خالداً قد تراجع عن العملية ولم يأت إلا لإقناع صديقه بالعودة، ولكن سعيداً يباغته ويمضي قدماً في خطته، ثم يفجر نفسه في حافلة مليئة بالجنود (الإسرائيليين)، ويُختم الفيلم بشاشة بيضاء تعطي المشاهد هامشاً واسعاً من التأويلات المتباينة.

تجريد المقاومة

يثير تطور الأحداث الكثير من التساؤلات، إذ لم يكن التحول في مسار شخصية البطلين مقنعاً، فلماذا يبدي سعيد تردداً في البداية ما دام مصراً

على المضي قدماً بهذه القوة؟ وكيف يمكن لسهى أن تقنع خالداً في حوار قصير وغير متكافئ بالعدول عن رغبته العارمة في الوصول إلى الجنة بأقصر الطرق؟ وهل يعقل أن يتحول هذا الاندفاع المدعوم بقناعة دينية وعجز عن النضال، حسب قوله، إلى موقف مناقض تماماً في اللحظة الأخيرة، وإلى اقتناع لا ينقصه الحماس بوجود طرق أخرى للنضال؟

من جهة أخرى، يتعمد الفيلم منح الفرصة الوحيدة للاستشهاد لسعيد بدلاً من خالد، كما يسمح لسعيد بشرح وجهة نظره بكل عقلانية وهدوء دون أن يناقشه أحد، في الوقت الذي نجد فيه خالداً عاجزاً عن تبرير دوافعه من دون غضب وانفعال شديدين، ثم تنجح سُهى؛ الفتاة المثقفة التي عاشت جزءاً من حياتها في الخارج، في نقض هذه الدوافع مع وجود حلول بديلة؛ كاللجوء إلى منظمات حقوق الإنسان وعدم تقديم المبررات للمحتل لتطبيق المزيد من القمع عند تنفيذ مثل هذه العمليات، أما الرأي الأكثر وضوحاً فهو الذي يُختتم به حوارهما عندما تصرخ في وجه خالد قائلة: ليست هناك جنة، إنها مجرد خرافة في رأسك(!).

هذه الصورة الهزيلة للاستشهادي لم تكتف بتفريغه فكرياً، بل جردته أيضاً من دوره الفاعل والحقيقي من خلال تقديمه في صورة (الكومبارس) الذي يتلقى الأوامر في الليلة الأخيرة من حياته. أما الصورة التي ظهر فيها القادة فلا تبتعد كثيراً عن الصورة النمطية الغربية لمدبري **العمليات الإرهابية** الذين يدفعون الشباب العاجز والمحبط إلى الموت بالنيابة عنهم، فشخصية جمال المريبة لا تبعث على الارتياح، بنظراته التي لا تخلو من الخبث وتدخينه الشره، أما مشهد تناوله للشطائر ببرود في أثناء قراءة خالد بيان الاستشهاد أمام الكاميرا فيجرده حتى من المشاعر، ويبرز سيطرته التامة على الموقف والطمأنينة التي ينعم بها في الوقت الذي يدفع فيه الآخرين إلى الموت!

يتكرر التنميط أيضاً خلال مشهد تحضير الشابين للعملية على خلفية إسلامية، حيث يقوم عناصر الخلية بحلاقة رأسيهما وتغسيلهما كما يُغسَّل الميت ثم تركيب الأحزمة الناسفة وإلباسهما بذلات فاخرة، وفي النهاية يصطف الجميع خلف رئيسهم في صلاة جماعية، وتتوالى هذه اللقطات الصامتة على خلفية دعاء جماعي نمطي: «اللهم شتت شملهم وفرق جمعهم...»، في ربط سمعي وبصري لاشعوري بين **الإرهاب** والعبادة[1]!

هذه المشاهد وغيرها تفسر حصول الفيلم على تمويل فرنسي، هولندي، ألماني، بل من صندوق السينما في إسرائيل، ثم وصوله إلى دور السينما في أوربا والولايات المتحدة وعرضه في أكثر من خمس وأربعين دولة، وترشيحه من قبل السلطة الفلسطينية للمشاركة والفوز بعدد من الجوائز في كبرى مسابقات الأفلام في العالم. ويبقى كل ما قيل عن الضغوط التي مورست لمنع الفيلم من الانتشار والفوز بالأوسكار خارج دائرة الاهتمام، لإدراكنا المسبق بقدرة هذه الضغوط على منع الفيلم من الوصول إلى مسابقة الأوسكار في حال تأكد إصرار اللوبي الصهيوني على طرده، وهذا لا يقلل من شأن تصريحات المخرج حول صناعة الفيلم

(١) بات هذا الأسلوب شائعاً في العديد من الأفلام التي تتعرض لقضايا الإرهاب، ففي فيلم (United 93) المنتج عام٢٠٠٦، على سبيل المثال، الذي يعرض قصة خطف إحدى الطائرات الأربع صباح الحادي عشر من سبتمبر لاستهداف الكونغرس، تأتي افتتاحية المخرج والسيناريست (بول غرينغراس) بلقطات لشباب عرب يؤدون الصلاة ويقرؤون القرآن في غرفة بإحدى الفنادق الأمريكية، وبالتوازي مع لقطات للمدن الأمريكية وشوارعها النابضة بالحياة، ثم عودة إلى الخاطفين الشباب في أثناء استعدادهم لتنفيذ جريمتهم البشعة، وكل ذلك على خلفية صوتية لتلاوة من القرآن الكريم! والمؤسف هنا مرة أخرى أن يجسد أدوار الخاطفين ممثلون عرب، وهم خالد عبد الله، لويس السامري وعمر بردوني.

بتقنيات بصرية عالية، إلا أنها ليست السبب الوحيد في رأينا للوصول إلى العالمية، خصوصاً أن أداء بعض الممثلين لم يكن مقنعاً، مثل الهدوء المتكلف إلى درجة البرود في أداء الممثل قيس ناشف، واللهجة الهجينة وغير المقنعة على لسان لبنى عزبل، فضلاً عن تدني مستوى الأداء لدى معظم الممثلين الثانويين و(الكومبارس)، وهو أمر قد يبدو مبرراً لدى المشاهد العربي الذي يدرك صعوبة العثور على محترفين في الأرض المحتلة، ولكنها نقطة ضعف محسوبة لدى المشاهد الغربي وحكام مسابقة الأوسكار.

من جهة أخرى، ومع كل ما قيل عن موقف صانع الفيلم من المقاومة، فمن الواجب إنصافه بالعودة إلى اعترافه الأخير بأنه قد «غيّر رأيه»، مصرحاً بأنه: «لازم تكون الأولويات المهمة حالياً دعم المقاومة في أي شكل في الدراما»[١].

ولكن؛ هل سينجح هاني أبو أسعد بموقفه الجديد هذا في إقناع ممولية بدعم أفلامه الجديدة والمشاركة في مسابقة الأوسكار مرة أخرى؟ وإذا كان ذلك مستحيلاً فهل سيدعمه الممولون العرب هذه المرة؟

يبقى أن نشير قبل اختتام هذا الفصل إلى أن فيلماً فلسطينياً آخر تم ترشيحه لمسابقة الأوسكار في فئة أفضل فيلم أجنبي عام **٢٠١٠**، وهو فيلم (**عجمي**) للمخرج الفلسطيني (**إسكندر قوبطي**) بالاشتراك مع الإسرائيلي (يارون شيني)، والذي يسلط الضوء على معاناة الفلسطينيين في يافا. ومن الجدير ذكره أن قوبطي قد تجرأ بعد ترشيح فيلمه للأوسكار من قبل إسرائيل على التصريح بأن فيلمه ليس إسرائيلياً، فهو فلسطيني ولا

(١) ورد هذا التصريح في برنامج (حوار مفتوح) على قناة الجزيرة [موقع الجزيرة نت، بتاريخ ١/ ٩/ ٢٠٠٩].

يمثل إسرائيل ولا هي تمثله كوطن، ولعل هذه التصريحات كانت إحدى أسباب إخفاق الفيلم في المسابقة.

الجوائز العالمية التي حصل عليها فيلم (الجنة الآن)

جائزة مهرجان برلين للسينما العالمية.

جائزة الفيلم الأوربي.

جائزة العجل الذهبي في هولندا.

جائزة الجولدن جلوب في الولايات المتحدة.

جائزة مهرجان دوربان للسينما العالمية في جنوب إفريقيا.

جائزة منظمة العفو الدولية (آمنستي إنترناشيونال).

وجائزة قراء صحيفة (مورغن بوست).

obeikandl.com